البحث الرابع

الصابئة المندائيون وشيء عن الزرادشتية والمانوية

بداية لنأخذ فكرة عن الزرادشتية... الزرادشتية نسبة إلى نبي هذا الدين زرادشت ، وتعرف عالميًا بالمجوسية ، ويعدها عدد من الباحثين من الديانات التوحيدية مثل المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية...

نشأت هذه الديانة في بلاد فارس ، ومنها انتشر أتباعها في الهند وأفغانستان وأذربيجان ، وهناك أعداد من المهاجرين في أمريكا وأوروبا... وهناك من يقول إن زرادشت فيلسوف مثل بوذا وليس نبي ، قام هذا الفيلسوف بتجميع الآلهة الفارسية المتعددة في إله واحد سماه أهورامزدا وتعني (نور الحكمة) أو (إضاءة الحكمة) ، ودعا إلى ثنوية (الخير والشر) ، ظهر هذا الدين في القرن السادس قبل الميلاد وأثر لاحقًا وتأثر بالأديان الأخرى الموجودة أو التي وجدت لاحقًا ، الدين الزرادشت أقرب إلى الأديان الهندية القديمة ، ويختلف عن الأديان التوحيدية الأخرى في كثير من الأمور ويتشابه في مواضع أخرى.

تأثرت الديانة الزرادشتية بالدين المندائي جذر التوحيد الأول ، وأخذت منه كثير من الأمور ، وتأثرت بها لاحقًا الديانة اليهودية والمسيحية والإسلام وبشكل عام الأديان الغنوصية ، ويؤكد بعض الباحثين أن اليهود تعلموا أشياء كثيرة من الزرادشتية أثناء السبي البابلي ، وقد تأثرت الديانة الزرادشتية بالديانة المندائية التي سبقتها وبحضارة بابل في بلاد ما بين النهرين.

للزرادشتية كتاب مقدس يسمى (الأبستاق) أو (الأفيستا) كتب بلغة مزيجة من الفارسية والسنسكريتية الفيدية الهندية ، وهذا الدين بدء في منطقة تقع غرب مدينة طهران حاليًا التي تقع في شمال إيران كثير من الناس يعتقدون أنهم يعبدون النار ، لأن معابدهم فيها شعلة من النار متقدة باستمرار ، ولكن حقيقة

الأمر أنهم لا يعبدون النار، وإنما يعتبرون النار كالماء أساس للطهارة والنقاء، وأن أهم أعيادهم وأشهرها عيد نيروز الذي تحتفل به أقوام عديدة ومنهم الأكراد الذين يعطون أهمية بالغة لهذا العيد، وحتى أهل البصرة وأهل ديالي في العراق يحتفلون بهذا العيد الجميل.

أكيد هناك أوجه شبه بين الدين المندائي والدين الزرادشتي لأنهم موجودون في نفس البقعة الجغرافية ولأن المندائية والزرادشتية تؤمن بإله واحد مثلهم مثل الأديان الموحدة الأخرى، والمندائية تسمي الخالق الحي العظيم (هيي قدمايي) والزرادشتية تؤمن تسميه أهورامزدا.

إن الشعائر والطقوس هي التي تميز دين عن الدين الآخر، وطبيعي كل الأديان لها مقومات الدين مثل التوحيد، التعميد، الصوم، الصلاة، الصدقة... ولكن أداء هذه الأركان الدينية يختلف من دين لآخر، وطبيعي يحصل تشابه مثلاً في الملابس أو اتجاه القبلة أو في مراسيم الزواج أو الوفاة ولكن مع هذا هناك اختلافات كثيرة في شعيرة التعميد أو الصوم والصلاة، وهناك تشابه في بعض المفاصل، مثلاً لبس الملابس البيضاء، كثير من الأقوام تفضل اللون الأبيض لأنه لون النور، وكثير من الأديان تؤمن بالثواب والعقاب وبالجنة والنار وهناك أديان تؤمن بالتعميد مع اختلاف في إجراءات التعميد؛ فالمندائيون تعميدهم الغطس في الماء الجاري، والمسيحيون بالرش، وهكذا... وهذا يسمى تعميد وهذا يسمى تعميد، ولكن هذا التعميد لا يشبه ذلك التعميد.

وهناك تشابه في بعض الإجراءات بين المندائيين والزرادشتيين مثل إيمان الزرادشتيين أن الروح تبقى تتحرك بين القبر والمكان الذي مات به الإنسان لمدة ثلاثة أيام قبل عروجها إلى العالم الآخر مثل المندائيين ومثل البابليين، كذلك تؤمن مثل المندائيين أن الجسد فاني، وأن الروح تحاسب حسب حسناتها وسيئاتها في الحياة الدنيا، وأن النفس طاهرة لا تحاسب، كذلك هناك نوع من التشابه في طعام الغفران (اللوفاني) ولكل دين إجراءاته ومراسيمه التي تميزه

عن الأديان الأخرى، كان الزرادشتيون وحسب تعاليم نبيهم زرادشت لا يدفنون الميت لكي لا يلوث الطبيعة وإنما يتركوه في العراء لتأكله الجوارح بعدها توضع العظام في أبراج خاصة ولا تدفن...

وإني رأيت أمور عجيبة في شمال الصين أي في منغوليا والنيبال عندما يتوفى عندهم شخص يأتي رجال الدين ويقطعوه ويدقوا عظامه ويذروها على اللحم ثم ينشروه على جلود على سفح جبل لتأتي الطيور الجارحة من السفح الآخر ، وفي حالة حدوث حادث كبير يذهب ضحيته عدد من البشر ، تشبع هذه النسور فلا تلتهم كل اللحم، وهنا تظهر علامات الحزن على الأهل والأقرباء لأن ميتهم لم تنقله الطيور إلى الجنة وهكذا...

لكن بسبب التطور الحاصل في المجتمعات نصح زرادشت أتباعه بضرورة الانسجام مع المجتمعات والتطور وذلك بدفن موتاهم بعد وضعه في صندوق معدني محكم، وهذا يضمن عدم تلويث الجثمان الماء والهواء والتربة، وعلى ذكر عناصر الماء والهواء والتربة والنار هذا يذكرنا بالسكندولة عند المندائيين، لأنه عند الزرادشتيين النحلة تمثل الهواء والحية تمثل الماء والعقرب يمثل التراب والنار تمثل القوة ، وباختلاط الماء والتراب تتكون المادة (الجسد) وباختلاط الهواء بالنار تتكون الغازات (الروح) ، بينما المندائيون يفسرون السكندولة غير ذلك، ويعتبروا هذه الرموز من عالم الظلام.

إذن (أهورا مزدا) هو الإله في الدين الزرادشتي وهو يمثل الخير عند الزرادشتيين ، ويعمل بالضد منه إله الشر ويسمى (أهرامان)... ويؤمن الزرادشتيين أن القيامة ستقوم بعد أن ينتصر أهورامزدا على أهرامان... بعدها تبدأ الحياة الثانية لكافة النفوس الطيبة وتبعث الأموات وتعود لحياة ثانية لهم وتبدأ الحياة الثانية بدون شيخوخة أو أوجاع أو موت ثاني، وتنتهي للأبد الفساد والخوف والانحلال ويحل العدل والمساواة والصدق والأمان عند كل البشر.

وخلاصة القول إن الدين الزرادشتي يؤمن بالتوحيد ولكن بمنظور ثنائي إله الخير (أهورامزدا) ، وإله الشر (أهرامان) ، وأن مؤسس هذا الدين النبي زرادشت ، وليس للزرادشتيين نبي غيره ، وأن الزرادشتيين كانوا لا يدفنون موتاهم كما أسلفنا ولكن حاليًا وانسجامًا مع المجتمعات التي يعيشون بدأوا يدفنون موتاهم ، ويؤمن الزرادشتيون أن إلههم هو إله الخير أهورامزدا وهو خالق الكون ، وأنه مصدر الخير والعدل والسعادة ، كذلك يقدس الزرادشتيون الشمس والنار ولا يعبدوها ، فالشمس مصدر الضوء في العالم العلوي والنار مصدر الضوء في العالم السفلي ، وأن تقاطع أي غصنين بشكل صليب أحدهم يمثل الشمس والآخر يمثل النار ، وكلاهما من جواهر الحياة لأنهما يقهران الظلام.

أما الدين المندائي يؤمن كذلك بتوحيد هيي قدمايي ملك النور السامي وبالملائكة المسبحين له ، وأن الحي العظيم واحد أحد لا يشاركه ملكه أحد ، وبأمره كل شيء صار ، وأنبياء الصابئة المندائيين آدم وشيتل وسام وإدريس ويحيى بن زكريا خاتم أنبيائهم ، والصابئة المندائيون يدفنون موتاهم وفق شعائر وطقوس تدل على الطهارة والنقاء ويعتبرون الجسد خلق من تراب وإلى تراب يعود وهو بمثابة حبس للنشمثا التي تمثل النفس الطاهرة النقية والروح التي تعني مجمل الفعاليات من حسنات وسيئات ورغبات وشهوات للإنسان من المهد إلى اللحد.

والمندائيون لا يعبدون الشمس ولا النار ولا الكواكب والنجوم فهم يعبدون الحي العظيم (الله) ملك النور السامي ، من هذا أيها القارئ العزيز نفهم أن الدين الزرادشتي له طقوسه وشعائره وفكره... وأن الدين المندائي له شعائره وطقوسه وفكره ، ومن الطبيعي أن توجد أوجه تشابه بسيطة بين الأديان التوحيدية التي عاشت في نفس المنطقة متقاربة ، وعلى الباحث الدقيق الأمين أن يستقي معلوماته من مصدرها ، لأن الصابئة المندائيين إرث حي موجود وممكن الإطلاع على كتبهم واللقاء ومناقشة رجال دينهم وزيارة مناديهم

والتعرف على مثقفيهم والوقوف بصدق وأمانة على حقائق دينهم ومعتقدهم وإيمانهم، وهم حاليًا موجودون في العراق من جنوبه إلى شماله، وموجودون في أرجاء المعمورة، وكذلك الحال بالنسبة للزرادشتيين؛ فهم موجودون في أبران قرب طهران، بعيدين عن المياه البهية، وموجودون أيضًا في أرجاء المعمورة، ولهم معابدهم ورجال دينهم ومثقفيهم وكتبهم، وعلى الباحث الأمين معاشرتهم ليكتب عنهم بصدق وأمانة، وألا يعتمد على الإعلام والنقل غير الأمين، وعلى قال فلان ونقل عن الراوي.

هناك حضارات سادت ثم بادت مثل السومريين والبابليين والفراعنة والرومان والإغريق، ولكنهم تركوا آثار أركولوجية وميثولوجيا تدل على أنهم كانوا موجودين وتركوا آثار حضارية موجودة في المتاحف وفي الأماكن التي عاشوا بها، ولكن أين هم ؟ لقد ذهبوا مع الزمن وبقت آثارهم وحضاراتهم، لكن المندائيون موجودون والزرادشيون موجودون، والباحث ممكن أن يكذب على الموتى، ولكنه لا يستطيع أن يكذب على الأحياء وخاصة إذا كان ينتسب إلى هذا الدين أو ذلك الدين، وهو يعرف الحقيقة ولكن للأسف يحرفها، مثله مثل أيشيع القطيعي عندما حرف الحقائق متعمدًا، أو مثل المؤرخ عبد الرازق الحسني عندما ادعى ظلمًا وبهتانًا أن الصابئة المندائيين عبدة كواكب ونجوم ثم اعتذر، أو مثل الأصطخري الذي خالف في فتواه حتى القرآن الكريم، المؤرخ والباحث يجب أن يكون صاحب ضمير حي محايد عادل في أحكامه مثله مثل القاضي العادل عندما تعرض عليه قضية مهمة مثل جريمة قتل مثلاً، واجب عليه أن يتأكد من تكامل أركان الجريمة، وعند دراسة حيثيات القضية يصدر حكمًا نزيهًا عادلاً يرضي ضميره ويرضي العدالة، فما بالك أن يخرج عليك مثقف يعرف الدين حق المعرفة وله قدرة على الإطلاع والتدقيق والتأكد من الحقيقة، ولكنه يحرفها ويكتب على هواه، وبهذا يكون البحث غير أمين وغير دقيق وتعتبر معلوماته ضعيفة وتضيع جهوده هباءً مع الأسف.

أما المانوية:

يرتكز الدين المانوي الذي أسسه (ماني بن فاتك) على أساس أن الحي العظيم (الله) هو الخير والنور، وأن الروهة (الشيطان) هو الخطيئة والشر والظلام، وأن أي شيء مادي هو جزء من الشر؛ سواء كانت أرض أو نبات أو حيوان أو جسد... وأن جميع الأشياء الروحانية من عقل وحلم وخيال وفكر هي جزء من الخير، ويجب على الإنسان الذي يؤمن بالدين المانوي أن يحتقر جميع ماديات الحياة، ومنها الجسد لأنها حبس للنفس (النشمثا).

ويقول ماني أن الخطيئة والشر تتمثل بثلاثة وسائل: القلب الذي يمثل النية الصادقة والحب، والفم الذي يمثل كلمة الحق والصدق، واليد التي تمثل فعل الخير، وعلى رجل الدين أن يتجنب العمل لكي لا يرتكب خطيئة.

ولد ماني في مدينة المدائن قرب بابل من أب صابئي مندائي، ويقال تمَّ طرده من قبل الصابئة المندائيين عندما أعلن نبوءته وادعى أنه (نبي النور)، حصل انشقاق في الدين المانوي وتم تأسيس المزدكية في بلاد فارس لمؤسسها (مزدك) وابتعدت المزدكية عن المانوية وتقربت إلى الزرادشتية، انتشر هذا الدين في أرجاء من آسيا ولكنه باجتياح المغول تمَّ القضاء على المانوية تمامًا...

لكنهم قبل ذلك نشطوا في زمن الدولة العباسية وخاصة في زمن الخليفة العباسي (المهدي) الذي حارب أتباع الدين المانوي واعتبرهم من الزنادقة، ويذكر أن عددًا من المثقفين والكتاب والشعراء كانوا يحسبون على هذا الدين، مثل أبو نواس، أبو العتاهية، عبد الله بن المقفع، وغيرهم...

نشأت الديانة المانوية في القرن الثالث الميلادي تقريبًا، وهي ديانة عراقية مستمدة تعاليمها من الديانة المندائية (الصابئة المندائيون)، ومازالت آثارها باقية يمثلها التصوف في العراق...

في عام ٢١٦ م أمر الملك الساساني شاهبور بن أردشير الشاب (ماني بن فاتك) وكان عمره إحدى وعشرين سنة بتأسيس دين جديد لأن بلاده انتشرت فيها

المسيحية والزرادشتية والبوذية واليهودية... ماني ادعى النبوة بنزول الوحي عليه وأسس ديناً استمد تعاليمه من كل هذه الأديان، وهناك باحثين يؤكدون أنه ارتكز على الدين المندائي لأنه ولد من أب مندائي اسمه فاتك وأم مندائية اسمها مريم، وانتشر دينه لكنه دعى إلى الزهد والتصوف وحرم الزواج، فخاف الملك من تناقض شعبه وقلة عددهم وبالتالي ضعفهم وطمع الأعداء بهم، فأمر بقتله شر قتلة...

ولهذا فالدين المانوي الذي أنشأه ماني استمد تعاليمه من عدة أديان كانت موجودة في المنطقة بين العراق وإيران، واستفاد كثير من التعاليم المندائية التي كانت ساندة في جنوب العراق، ولا يوجد أي ذكر لماني أو الدين المانوي في الكتب الدينية المندائية ، ومعظم الباحثين المنصفين يؤكدون على أن الدين الصابئي المندائي هو جذر التوحيد الأول الذي سبق كل الأديان.